الفصل الحادي عشر

قال الشيخ :

ـ جهاد النفس صير المُراد عالماً من العلماء. وقال ابن عطاء الله : حرك عليك النفس ليحوشك بها إليه . ولما سأل سبحانه موسى عن عصاه أجاب : أهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى . والعصا الجهاد . فدور النفس مثلّ هنا الدور الذي مثله ابن تيمية حين دفع الناس إلى قراءة أعمال سلطان العارفين . والعامة تقول كل ممنوع مرغوب . فبوجود النفس أمكن فض خاتم حقيقة الاسم المزدوج الهادي المضل فعرفنا النفس وخاطريها .

والإنسان الكامل بلغ الكمال لأن نفسه شديدة مثله . فبقدر ما يكون الخاطر النفسي قوياً بقدر ما تعي ما في ذاتك من انشطار ذاتي . فأنت في جهة ، ونفسك في جهة ، ونفسك نفسك وإن كانت عدوة لك ، وأنت أنت دون أن تدري ماهيتك ، ومع هذا فالإنشطار موجود ، والصراع النفسي قائم في النفس ورحى الحرب دائرة . وبقدر حدة الصراع يصير الإنسان عالماً . فالموقف أشبه بمعركة حامية الوطيس ، فكلما اشتدت الحرب ضراوة ضد العدو كلما عرف القائد المزيد عن عدوه وإمكاناته وخبراته وأسراره ومناوراته .

ولأن النفس الجزئية بضع من النفس الكلية ، ولأن في النفس الكلية انشطاراً كما سبق أن بيّنا ، ولأن مجموع النفوس الجزئية يملأ دائرة النفس الكلية

obeikandl.com

فالانشطار الذاتي الجزئي يصبح انشطاراً ذاتياً كلياً أو عالمياً إن توخينا الواقعية . بالوسع القول إن انشطارنفسك يؤدي إلى انشطار عالم النفوس كله شطرين فشطر يمثل شطرك الهادي وشطر يمثل شطرك المضل فإذا أنت في النهاية إنسان عالمي حويت العالم وما فيه .

وأخذ الشيخ نفساً عميقاً ثم تابع قائلاً :

ـ الله يعلم كم جاهدت نفسي ومنعت نفسي من نفسي ونصرت نفسي على نفسي وخضت حرباً ضروساً ضد نفسي فأنا واحد ولست بواحد ، وأنا اثنان ولست اثنين ، وأعيش كما لو أن في داخلي كائنين متضادين متحاربين لا يتفقان أبداً .

وعاد الشيخ فغرز في عينيّ عينيه القويتين واستطرد قائلاً :

ـ وما خلق الله شيئاً إلا لحكمة . ولما خلق الله آدم خلقه على صورته ومثاله . ومثال الله جمعية اسمائية تقسم إلى قسمين أسماء الجلال وأسماء الجمال . والله جميل ولهذا خلق كل جميل . ومن جملة خلقه أسمائه الجميلة كالمعز والمحيي والكريم والبهي والسلام والمؤمن إلى آخر الأسماء الجميلة ، ثم خلق مقابلها اسماء الجلال ، والجلال من السطوة والقوة ، ومن هذه الأسماء الجبار والمنتقم والمذل والقابض إلى آخر اسماء الجلال أيضاً .

ويمثل آدم أبو البشر هذه الأسماء لأنه أول خلق الله من التعينات الأسمائية . ولهذا نجد أن ولدي آدم هابيل وقابيل قد أخذا عن أبيهما شطراً من الجمعية الأسمائية ، وكان حظ هابيل بعض أسماء الجمال بينما كان حظ قابيل بعض أسماء الجلال . ولايهمنا في هذا المجال الحديث عن هابيل وقابيل فقصتهما مشهورة ، ولقد قصها سبحانه في كتبه المنزلة ، إنما يهمنا الحديث عن تمثيل آدم أبي البشر للجمعية الأسمائية بشقيها الجميل والجليل .

فآدم حين كان في الجنة كانت أسماء الجمال الإلهية هي التي تشع فيه ، ولهذا كانت جنته جنة المعقولات الجمالية التي ورد ذكرها كثيراً في الفلسفة ، ومن هذه المعقولات اتصاف الله بالحق والخير والجمال . وهي صفات قرأنا عنها

لأفلاطون وأرسطو وأفلوطين وكثير من قبلهم ومن بعدهم أيضاً .

وحين خلق الله حواء، وشاء أن يُحمل هذه النفس شطر أسمائه الجلالية، وكانت النتيجة أن حواء هي التي أغرت ادم بالأكل من الشجرة المحرمة مما أدى بآدم إلى الهبوط من جنة المعقولات الجمالية إلى الأرض العيان الجلالي ليكدح آدم في هذه الأرض حتى غفر له الله من ذنبه ما تقدم فعاد إلى جنته من جديد .

إذن في آدم نفسان كما قلنا ، ولكل نفس أسماء ، ولكل اسم وحي ، إذ الأسم صفة ، وواضح أن الصفة فكر . فقولنا فلان عزيز يعني أن له وحياً يجعله عزيزاً دائماً يربأ بنفسه عن الاتصاف بغير صفة العزة كقبوله المذلة مثلاً . ولأن آدم أبو البشر ، ولأن الله خصه بعلم الأسماء فلقد جمع آدم كل عيون الأسماء في عيانه ، فما من اسم من أسماء الجمال الإلهية إلا وهو موجود في شق من شقي نفس آدم ، وله وحي يوحي إلى آدم باتباع صراط الله المستقيم الذي خلق كل دابة وأخذ بناصيتها يميناً وشمالاً ، جمالاً وجلالاً ، طوعاً أو كرهاً ، وهذا ما جاء في محكمات الآيات في كتاب الله العزيز .

وآدم نبي ، وهو مكتوب في الأزل من الصالحين . فهبوطه إلى أرض عيان الأسماء الجلالية كان لحكمة كما قلنا وهي كشف آفاق أسماء الجمال إذ الضد بالضد يعرف . وقد سئل الخراز : بم عرفت الله ؟ قال : بالجمع بين الضدين .

ومن آدم انتشر البشر . وأول ما ولد له ولدان كما أسلفنا . وفي الحديث القدسي أن الملك الموكل بالأرحام يكتب بأمر الله أجل كل مولود ورزقه وعمله وشقي هو أو سعيد .

لقد شاءت الحكمة أن يكون هابيل حامل ختم أسماء الجمال كما قلنا وأن يكون قابيل حامل ختم اسماء الجلال ، ولأن اسماء الجمال مشعة أصلاً عن النور ، ولأن اسماء الجلال لا تظهر إلا في عالم الحجب والظلال أو ظلام المادة فلقد اصطدم النور بالظلام وأعلن قابيل الحرب على شقيقه هابيل وكان ما كان . وانقسم البشر من ثم قسمين وفريقين ، فريق هم أتباع هابيل وفريق اتباع

قابيل . وما يهمنا القول إن آدم ، كنبي ، وكأب للبشر ، كان يعلم صفات كل من ولديه ، لأن هذه الصفات موجودة أصلاً فيه ، صفات الجمال المشعة عن روحه وصفات الجلال المنبثقة عن حواء نفسه الأمارة بالسوء التي أخرجته من الجنة .

كان آدم يسمع حوار ولديه فيعلم أياً من الأسماء التي يتكلم بها هابيل أو قابيل ، ومن هنا فارتقى آدم من الجهل بالأسماء إلى العلم بها بعد تعّرفها عن طريق وجودها في نفسه وفي نفسي ولديه . فالحوار ، والحوار فكر ، والفكر قد يتحول إلى حركة ، هو الذي فض خاتم الأسماء فتعلم آدم ما أراد الله له أن يتعلمه قبل هبوطه من الجنة وبعد هبوطه منها .

ولقد انتشر البشر في الأرض من هابيل وقابيل . وكان البشر فريقين كما قلنا ، ولكل من الفريقين أسماء توحي إليه فيتكلم بناء على هذا الوحي فترى من ثم أن حوار الفريقين هو حوار الأسماء الإلهية التي لم تخرج مكنوناتها إلا بعد أن فضت هذه المكنونات فخرج ما فيها من علم بالقوة إلى علم بالفعل .

وآدم خليفة في الأرض . ومن بعد آدم جاء أنبياء ، آحاد افراد ، تناقلوا علمه بالأسماء كابراً عن كابر ،وذلك من عين المشكاة التي تعلم آدم منها . فكل عارف أو ولي هو آدم جديد جمع الله الأسماء كلها وأودعها أمانة لديه ليتعلم بها وعنها ثم يعلمها جميعاً فيصير عارفاً بالله .

الكامل من الناس ، ويسمى الإنسان الكامل هو حامل أختام الأسماء الإلهية بشقيها الجمالي والجلالي ، وهو يمر بنفس المراحل التي مر بها أبوه آدم فيعيش جهاد النفس لأن نفسه يتنازعها حوار الأسماء المتضادة . لقد حمل الله سبحانه إنسانه الكامل أمانة الأسماء الإلهية كلها ليصبح عالماً به وعارفاً كما أسلفنا ، وهذه الأمانة هي نور وصف دورها سبحانه بقوله :﴿ وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس). هذا النور الإلهي هو للمصطفين من العباد الذين خصهم الله برحمة منه فعلمهم ما لم يكونوا يعلمون .

والنور جامع ، جامع أسماء ، ومجموعة صفات ، ولذا نعت من وهب

هذا النور بالكمال . فالصفة عين ، والعين العيان ، وكل إنسان له صفة أي عين . وكنا تحدثنا عن الشجاع والكريم والعليم والحليم . وتشترك عادة بضع صفات في وجودها في الإنسان الواحد ، ولهذا قال الإمام علي : إذا رأيت من أخيك صفة حسنة فانتظر اخواتها .

والصفات مشعة لأن عيونها الموحية مشعة والإشعاع فعل . وقد يتفق أن تتعارض العيون فيكون الكريم جباناً وقد يكون المؤمن منقاداً للشهوات ، أو على العكس فإن صاحب العين الجلالية الحامل لختم من أختام اسماء الجلال كأن يكون ممثل اسم المذل أو الخافض أو المنتقم ، قد يتفق لصاحب هذه العين أن تكون عنده عين من عيون الجمال فيكون كافراً وكريماً أو كافراً وشجاعاً ، وهذا أمر يؤكده الواقع ونشهده نحن على مسرح الحياة . وقد وصف سبحانه أصحاب العيون المتضادة الذين يمثلون التناقض بقوله : مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . وقد تغلب عين الجمال عين الجلال في قلب من هذا الفريق فينتهي إلى جنة المعقولات ، وقد تغلب عين الجلال عين الجمال في قلب آخر فينتهي إلى جهنم الحجاب والبعد بسبب عينه الغالبة الحاجبة ذاتها .

وقلنا إن وجود صفات الجمال والجلال جميعاً في الإنسان الكامل يساعده على أن يكون عارفاً بالله وإماماً للناس كافة . فما من صفة وجودية عيانية ناطقة على لسان إنسان إلا ويعلمها الإنسان الكامل علم اليقين . فالصفة الناطقة إلهام والإلهام أصله واحد ملهم من قبل العقل الفعال عن الحق . والعين الناطقة إن نطقت بألف باء صفة من الصفات ردها الإمام إلى مصدرها وعين عينها . ولذا قال رسول الله سيد الخلق والبشر : أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم ، وقد خص رسول الله صحابياً هو حذيفة بن اليمان بعلم النفاق وأسّر إليه أسماء المنافقين مما يدل على أن النبي كان يعرف الناس معرفة تعينه على تمييز المؤمن من المنافق من المشرك .

لقد بلغ من معرفة النبي بالمؤمنين أنه أمر أسامة على جيش علماً أن سن أسامة لم تكن تزيد عن العشرين إلا بقليل . وعندما تعصى فتح حصن خيبر على المسلمين دعا النبي علياً فلما جاءه وجده أرمد شديد الرمد فتفل في

عينه الرمداء فشفيت وقام علي بالمهمة التي أوكلها النبي إليه وحمل باب خيبر بقوة وصفها بأنها ليست قوة جسدية .

ولقد سمى النبي خالد بن الوليد سيف الله ، وقال عن عثمان إنه حيي تستحي منه الملائكة ، وقال عن عبد الرحمن بن عوف إنه يدخل الجنة حبواً ، وكان عبد الرحمن غنياً ، وقليل من الأغنياء من يدخل الجنة للأثقال التي يحملونها من الذهب والفضة وأوزارهما .

إذن كان النبي سياسياً وقائد أمة ومصلحاً عرف كيف يقود أمته ويرفعها من حضيض الجاهلية إلى رفيع درجات التقدم والحضارة حتى صُنف عليه السلام بأنه أول رجل من المائة الأوائل في التاريخ علماً أن المصنف عالم من علماء الغرب المعاصرين ومسيحي .

فالنور الذي يجعله الله لعبده المصطفى يعينه على تميز الخبيث من الطيب والصالح من الطالح وأصحاب اليمين من أصحاب الشمال . ونعت صاحب هذا النور بأنه ذو فراسة ، وقال عليه السلام : اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور ربه .

ومن غير الجمع بين صفات الجمال وصفات الجلال ما كان للإنسان الكامل أن يكمل . ولقد صرح عليه السلام بأن الشيطان يجري من بني آدم مجرى الدم ، فسألوه حتى أنت يا رسول الله ، فقال : حتى أنا ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم .

ولعل الشيطان الموسوس في قلب الإنسان الكامل يكون أقوى من شياطين بقية الناس وذلك ليكون على بينة من حقيقة هذه الوسوسة أولاً ، ولأن جهاد النفس ذاتها وهو الجهاد الأكبر يجعل قوة الوسوسة أشد وذلك بسبب الجهاد والمحاربة .

فالوسوسة جماعية ، وترتد إلى الاسم البعيد الذي هو الشيطنة كما قلنا . وما دامت صفات الجلال تدرج جميعاً في الاسم البعيد فإن إلهام الفجور يصدر بالتالي عن عين عامة جامعة لكل صفات الجلال ، ولهذا فإن الوسوسة واحدة في

الناس ، واحدة من جهة الإلـهام ومتكثرة من جهة من تلهمه .

والإنسان الكامل عندما يعي إلهام الوسوسة ، وذلك بأن يجعل الله له نوراً ينجيه من سلطانها يصبح بالتالي عالماً نفسياً عليماً بكل وسوسة تكون خاطراً ثم تصير صوتاً فمنطقاً يتسلح به صاحب الصفة ظاناً أنه يتكلم بمنطق ، ومنطقه إلهام ، وإلهامه فجور ، وفجوره خروج كما صرح سبحانه بقوله : ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ .

ولعله بسبب الجمع بين الضدين في قلب الإنسان الكامل وحده صار كاملاً بالذات ، ولعله لولا هذا الجمع ما صار كاملاً ، لأن الكمال يتطلب العلم ، والعلم يتطلب معرفة النفوس وتمييزها وتصنيفها وتفريقها ومعالجة من ثم أدوائها .

وقال عمر رضي الله عنه : لست بخب والخب لا يخدعني ، والخب بفتح الخاء الخداع . فعمر لقوة شخصيته ونفسه كان ذا نور يمشي به في الناس . وعمر نفسه هو الذي قال في أبي بكر رحم الله أبا بكر فلقد كان أعلم مني بالرجال . . قال هذا بعد أن عزل خالد بن الوليد عن أمارة الجيش واكتشف بعد ذلك غلطه في حين أصر أبو بكر على بقاء خالد أميراً لجيش المسلمين .

ولا تحسبّن التمييز بين الناس والحكم عليهم من الأمور الهينة يا بني ، ففي هذا الخضم من الناس ، والناس أجناس ، كيف السبيل إلى تمييز الصالح من الطالح واتخاذ الصديق ومحاذرة العدو والمنافق اللهم إلا بعد أن يدفع المرء ثمن هذه التجربة ما يدفع من دمه ودمعه وعرقه ؟

أما معرفة النفوس فيكفي أن تقرأ كتاب الإحياء للإمام الغزالي لترى هذا العالم العلامة والحبر الفهامة الغواص على أعماق النفس والواصف لهذه الأعماق وصفاً لا يدانيه وصف أكبر علماء النفس المتخصصين .

لقد اعتدت في اوقات فراغي في المكتبة التي أبيع فيها أدوات الكتابة والقراطيس أقرأ كتب الفقه على المذاهب الأربعة ، وذات يوم وجدت بين يدي

كتاب الإحياء فجعلت أتصحفه ، وما كدت أفعل حتى وجدتني مستغرقاً في القراءة إلى حد أنني أنسيت نفسي . ظللت أقرأ بشغف ونهم وعجب وإعجاب حتى أتيت على الكتاب الكبير كله ، وإذا بي أعود لأقرأه مثنى وثلاث ورباع دون أن أمّل .

وجدت أمامي مفكراً عملاقاً وصوفياً عرف الحقيقة . . عرف حقيقة نفسي التي بين جنبي ، وإذا به يدور بي في عوالم النفس الرحيبة ناقلاً إياي بين آفاقها العجيبة الغامضة ملقياً الأضواء على مافي هذه العوالم من أسرار وأعاجيب . لقد اعترف مستشرق فرنسي هو كارادیفو بأن كتاب الإحياء هو الكتاب الثاني في الإسلام بعد القرآن ، وأنه يحتل هذه المنزلة في نفوس المسلمين ، وأنه هو شخصياً ـ أي كارادیفو ـ ليعلن عجزه عن وصف لغة الغزالي وعظمتها وجمالها وغناها وتفريعاتها واشتقاقات مفرداتها لأن اللغة الفرنسية أو لغته هو على الأقل لقاصرة عن أن تحيط بهذا المحيط .

وفجأة رماني الشيخ بنظرته النافذة وسألني :

ـ هل قرأت الإحياء ؟

أجبت :

ـ أي نعم .

ـ وكيف وجدته ؟

ـ بحر بلا شطأن . (وترددت قبل أن أضيف) ولكن قيل إن الغزالي أورد في الإحياء احاديث ضعيفة أو موضوعة .

بدا عليه الانزعاج . . بدا عليه بشدة وقال :

ـ وهل وجد أعداء الحقيقة غير هذه النقطة ليطعنوا الغزالي وينتقدوا الإحياء ؟

وترددت ثانية ثم تجرأت وتابعت قائلاً :

ـ هل قرأت تلبيس إبليس لأبن الجوزي ياسيدي ؟

هز برأسه وأجاب :

ـ أجل قرأته ، قرأته . (وهز رأسه آسفاً) مسكين أبن الجوزي ، يصدق فيه ما قاله الإمام الغزالي نفسه إن (من ليس له نصيب من علوم المكاشفة هنا أخشى عليه سوء العاقبة) . المشكلة يابني أن من لم يكاشف بالحقيقة لا يقدر على هضم ما يقوله أعلامها . والغزالي نفسه كان إماماً في الفقه فهو فقيه أهل السنة باعتراف الباحثين ، ولكن الغزالي رأى وكوشف وذاق كأس الوصال وحاز مقام قاب قوسين أو أدنى فاطلع وعرف ، ومن معرفته بالحقيقة كتب الإحياء ومشكاة الأنوار وغيرهما من كتبه الصوفية .

إن أعداء الصوفية يطعنون على الغزالي لأنه استشهد في الإحياء بأحاديث ضعيفة أو موضوعة وما علم هؤلاء أن الإمام قد رأى ما رأى النبي عن وصوله إلى سدرة المنتهى ، وأنه أدرك الحقيقة كشفاً وعلماً واطلع على الأمر ظاهره وباطنه فشرع من ثم في وضع كتابه الإحياء . وابن عربي يقول في هذا الصدد أن للعارف رؤ ياه وعلى أساسها يحكم على صحة الأحاديث المعروفة فما قد يراه الناس موضوعاً قد يراه هو حديثاً صحيحاً لمطابقته رؤ ياه .

الصوفية يا بني رجال فارقوا عالم الناس وحجوا إلى الله الذي دعاهم فلبوا الدعوة وأجابوا النداء . الصوفية ليسوا كالبشر ، وهم صنف راق من البشر ، فما ينطبق عليهم لا ينطبق على الناس . الصوفي حاج إلى مكة الصدر ، وهو قد عاش إشراق الأنوار في كعبة القلب ،والقلب كما سبق أن قلنا مرآة ، ولا بد لهذه المرآة من جلو لتزول عنها كدورات المادة حتى تصلح لاستقبال الأنوار .

إن كنت آخذ على الإمام الغزالي شيئاً فهو وضعه (الإحياء) للناس كافة ، في حين أن كتابه الإحياء قد وضع للأحياء الذين لم يموتوا في هذه الحياة الدنيا . لقد حدد الغزالي معالم الطريق للسالكين وكان عليه منذ البداية ألا يترك الأبواب مشرعة لكل غاد وصاد . فما جاء في الإحياء هو لأهل الكهف الذين أفاقوا من نومهم وتهيؤ وا للذهاب إلى المدينة لبثّ ما عندهم من علوم .

إبن الجوزي وإبن نيمية وغيرهما يقولون إن الصوفية قد غالوا وما غالت الصوفية وإنما هم قد حملوا المشاعل للسالكين . فعلم التصوف ليس مورداً لكل وارد بل هو الشرب الذي خص به المرادون المصطفون فيسكرون ويجذبون من قبل الحق متوجهين إلى جناب حظيرة القدس مرتحلين على طريق الأربعين الموسوية ، وهي طريق خاصة للمرادين .

والمُراد غير المريد . المراد المنتخَب لا المنتخِب ، وهذه هي الغلطة التي ارتكبها الإمام على غير قصد . لقد وصف السبيل في الإحياء للمريدين فكانت النتيجة أن نشأت على مدى قرون طرق ضمت جيوشاً من المريدين الذين طبقوا ما جاء في الإحياء سعياً منهم إلى الظفر بدرة الحقيقة عن طريق انفجار الأنوار . وبعد ، فما كانت النتيجة ؟ لقد اتهم أعداء الصوفية الصوفيين بالكسل والخمول وترك العمل وأسباب الرزق والاعتكاف في التكايا توكلاً على الله ، وهم على حق في اتهامهم هذا لأن الأعتكاف في التكايا ليس للمريدين بل للمرادين ، ولولا الاعتكاف ما تمكن المرادين الوصول إلى الغاية المرجوة منه عند سطوع الأنوار .

ما جاء في كتب الصوفية إذن هو أشبه بطرق التدريس في الجامعات ، فهي مقصورة على هذا النوع من التعليم ، فأنت لا تستطيع أن تعطي مبضعاً لتلميذ في الابتدائية وتطلب إليه أن يقوم بعملية تشريح لجسم بشري .

لقد حسب الإمام أنه بوضعه الإحياء للناس كافة قد ساعد على إفساح المجال للمريدين للوصول إلى درجة المرادين ، ولكن جيوشاً من المريدين وقفت على عتبة المُراد عاجزة عن تجاوز العتبة إلى قلب الدار .

إن من حكمته تعالى أن صنف الناس طبقات ، ويسر بعضهم لخدمة البعض ، ولولا صانع الرغيف ما تمكن الغزالي من الاعتكاف في مئذنة الجامع الأموي والمسجد الأقصى بضع سنين ليكتب من ثم إحياء علوم الدين مشكاة المُرادين .